رحلة

الامام الشافعي

﴿ رضي الله عنه ﴾

الى مصر

وهي المحاضرة التي القاها الاستاذ

﴿ مصطفى منير ادهم ﴾

بدار الجمعية الجغرافية الملكية

في مساء الخميس ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٨

توزع مجاناً عملاً بوصية المرحوم السيد عبد الرحيم مصطفى الدمرداش باشا

سنة ١٩٣٠

م

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم بمصر

سنة ١٩٣٠

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله — أما بعد فاحييكم تحية الشافعي رضي الله عنه لاميرالمؤمنين هارون الرشيد فأقول السلام عليكم وبركاته — ولم يقل الشافعى السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وذلك لأمر ستعرفون سره في المحاضرة إن شاء الله

في سنة ١٥٠ هـ كان يوجد في غزة القريبة من ساحل البحر الابيض المتوسط بأرض فلسطين بيت بسيط جداً عليه دلائل الفقر ولكن زينه جلال الاصالة ووقار الحشمة وذلك لشرف الاسرة التي تسكنه

وكانت هذه الأسرة من أشراف قريش العلويين الذين شتتتهم الاضطهادات السياسية وأخرجتهم من بلادهم الاصلية بأرض الحجاز

وربة ذلك البيت السيدة فاطمة بنت عبد الله بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط بن على بن أبي طالب كرم الله وجهه وكان زوجها ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبديزيد ابن هاشم بن المطلب بن عبد مناف يجتمع نسبه مع المصطفى صلى الله عليه وسلم في جده الثالث عبد مناف

حكى الخطيب في تاريخ بغداد قال لما حملت أم الشافعى به رأت في نومها كأن كوكب المشترى خرج من بطنها وارتفع في الجو حتى انقض بمصر وسقطت منه أجزاء أصاب كل جزء منها بلداً فأضاء به فقامت السيدة مذعورة من نومها وفي الصباح قصت رؤياها على المعبرين

فأخبروها بأنها ستلد ولداً يملأ طباق الارض علماً

وفي شهر رجب من سنة ١٥٠ المذكورة ولدت السيدة فاطمة غلاماً سمته محمدا (وهو الأمام الشافعى)

وبعد الولادة بأيام جاءت الاخبار من بغداد الى غزة بأن الامام الاعظم أبا حنيفة النعمان توفي وأنهم دفنوه بالرصافة في شرق بغداد فحسب أهل الشافعى حسابهم الزمنى فظهر لهم أن وفاته رضي الله تعالى عنه كانت في نفس اليوم الذي ولدت فيه السيدة فاطمة ابنها محمداً فاتخذوا هذه الحادثة تاريخاً لميلاد ذلك المولود كعادة العرب حيث كانوا يؤرخون بالحوادث الكبيرة التى تقع في زمانهم

كبر الغلام وبلغ من العمر سنتين وأصبح قرة عين والدته فرأت أمه أنه إذا بقي في غزة ربما ضاع نسبه من قريش فحملته الى مكة المكرمة ونزلت به بحي هناك بجوار الحرم يقال له شعب الخيف

ولما ترعرع أرسل الى الكتاب ولما لم يكن في طاقة أهله القيام بنفقات تعليمه أهمله المعلم وانصرف عنه

إن المعلم والطبيب كلاهما لاينصحان إذا هما لم يكرما

إلا أن هذا التقصير من جهة المعلم كان سبباً في نبوغ الصبي لأنه اجتهد في أن يكون على الدوام على مقربة من المعلم وقتما يعلم التلاميذ الدرس وكان يحفظ جيداً من المعلم كل ما كان يحفظه الصبيان حتى إذا ماذهب المعلم لقضاء حاجة أخذ الشافعى التلاميذ وحفظهم ما حفظه من المعلم

وبهذه الوسيلة قويت حافظة الامام الشافعى تدريجاً فأحبته التلاميذ والتفوا من حوله ورفعوا مكانته وأطاعوا أمره .

وكان الشافعى ميالاً الى الرياضة فكان يأخذ الصبيان الى ساحات مكة وضواحيها وهناك يلعب معهم العاب صبيان ذلك الزمان - وكان أهم هذه الالعاب الرمي وكان الشافعى ماهراً جداً فيه بحيث إنه كان يصيب عشرة من عشرة ولذلك كان زعيما للاولاد في الكتاب وفي خارجه

ولشدة حب الشافعى للرمي كان يذكره في مجالسه لما كبر فيقول لجلسائه : لقد كانت همتى وأنا صغير في الرمى ولذتي في العلم ، فقال أحدهم أنت والله في العلم أقوى منك في الرمي

ولما رأى المعلم أنه يجنى من وراء الشافعى أضعاف ما كان يطمع فيه من الاجر صرف عنه المطالبة بالمصروفات واعتبره في كتابه مجاناً

ولما بلغ الشافعى من العمر تسع سنين كان قد أتم حفظ القرآن الكريم كله فرأى أنه لم تكن ثم فائدة من بقائه في الكتاب فتركه ودخل المسجد الحرام يجالس العلماء ويحفظ الحديث وعلوم القرآن وغيرها من أنواع العلوم في ذلك الزمان ، فقرأ القرآن على اسماعيل ابن قسطنطين والحديث على سفيان بن عيينة ومسلم بن خالد الزنجى وغيرهما ، وكان لشدة فقره يجمع العظام ليكتب عليها مذكراته عن المحاضرات التى يتلقاها عن أساتذته ، بل كان يذهب الى دواوين الحكومة ومصالحها ويلتقط

قصاصات القراطيس من تحت أقدام الكتاب ليكتب على ظاهرها وفى المسافات الخالية فيها المذكرات التى يسمعها ويقول :

العلم صيد والكتابة قيده قيد صيودك بالحبال الواثقة
فمن الحماقة أن تصيد غزالة وتعيدها بين الخلائق طالقة

ولم ير الشافعي في ذلك غضاضة ، بل كان يعتقدان من أهم أسباب الفلاح في العلم الفقر ولذلك كان يقول : ما أفلح في العلم الا من طلبه في القلة

وكثرت القصاصات والعظام عند الشافعي حتى ضاق بها صندوقه وحجرته ولم يعد يجد مكانا يستريح فيه في الحجرة أو ينام فيه فصمم على أن يحفظ ماجمعه في تلك القصاصات والعظام عن ظهر قلب ويستغنى عنها فحبس نفسه في الحجرة وأخذ يحفظ كل ما كتبه فوق العظام والقصاصات بعزيمة صادقة لاتعرف الملل حتى أتم حفظها واستغنى عنها ، وخرج من الحجرة وهو يقول :

علمى معى حيثما يممت ينفعني * صدرى وعاء له لا بطن صندوقي
إن كنت في البيت كان العلم فيه معى * أو كنت في السوق كان العلم في السوق

إن هذه العملية قوت قوة الحافظة عند الشافعى الى حد مدهش جداً حيث بلغت به الدرجة أنه إذا فتح كتابا ليحفظ فيه اجتهد أن يغطي بطرف كمه الصحيفة اليسرى مخافة ان يقع نظره عليها فيحفظها

قبل ان يحفظ الصحيفة اليمنى

ولم يصل الشافعي الى هذا القدر من الذكاء المفرط والحفظ الخارق للعادة والفهم السريع إلا بفضل قوة إيمانه وصدق يقينه وحسن اعتقاده فهو يقول : إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في نومه فقال له « من أنت ياغلام » فقال : أنا من رهطك يارسول الله، فقال « أدن مني » فدنا منه فاخذ من ريقه وأمرّه على لسان الشافعي وفمه وشفتيه وقال له : « امض بارك الله فيك »

فقام الشافعي من نومه وهو يعتقد تمام الاعتقاد أنه إذا جيء له بالجبال صحفاً لحفظها وكانت هذه الرؤيا مفتاح باب الفتوح على الشافعي حيث أصبح وله رغبة في تحصيل العلم إلى حد أنه كان إذا سئل عنه قال: أسمع الكلمة التي لا أعرفها فتود أعضائي أن يكون لكل واحد منها سمع يتنعم بسماع تلك الكلمة وإذا قيل له كيف حرصك عليه قال حرص البخيل الجموع على المال وإذا قيل له كيف طلبك له ، قال طلب المرأة التي ضل ولدها وليس لها غيره

وكان الشافعي جميل الصوت في القراءة جداً حتى إن علماء مكة كانوا وهو في الثالثة عشرة من العمر إذا أرادوا البكاء من خشية الله تعالى اجتمعوا وقالوا هيا بنا إلى ذلك الصبي المطلبي ليسمعنا القرآن فيبكينا فاذا جاءوا وسمعوه تساقطوا بين يديه من كثرة البكاء وكان إذا رأى منهم ذلك أمسك عن القراءة شفقة عليهم وكان بالرغم من

جمال صوته يقرأ القرآن قراءة الفاهم لمعناه الواقف على دقائق مغزاه فكان مثلا إذا قرأ قوله تعالى (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) اختار أن يقرأ أمّرنا بتشديد الميم أي جعلنا مترفيها أمراء ففسقوا فيها

ولما بلغ من العمر الخامسة عشرة كان قد أتم علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والادب والشعر حتى إن الاصمعي نفسه وهو شيخ الشعراء كان يفتخر بأنه تلقى أشعار الهذليين على الشافعي وهو في الخامسة عشرة

ولما رأى أستاذه الامام مسلم بن خالد الزنجي أن الشافعي وصل الى هذا الحد في العلوم أجازه بالفتوى فكان يدخل المسجد الحرام وهو في الخامسة عشرة ويجلس يعلم الناس العلم ويفتيهم في دينهم

وصادف أن جاء من بغداد إلى مكة لأداء فريضة الحج الامام احمد بن حنبل وصاحباه اسحق بن راهويه ويحيى بن معين ودخلوا المسجد الحرام فوجدوا الشافعي وهو في الخامسة عشرة جالسا على كرسيه يقرأ للناس حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأوا حلقته أكبر الحلقات فقال اسحق لابن حنبل : سله يا احمد عن معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم « أمكنوا الطيور في أوكارها » في النهاية لابن الاثير الجزري اقروا الطير على مكناتها بفتح الميم وكسر الكاف وساق المعنى كما ذكر هنا فقال احمد : هذا معلوم أعني دعوا الطيور في ظلمة الليل في « أوكارها » فلم يقتنع اسحق بهذا التفسير وقال : والله لأسألنه ثم التفت الى الشافعي وقال له: يامطلبي وهي نسبته التي كان ينادي بها لانه من اولاد

عبد المطلب : ما تفسير هذا الحديث فقال الشافعي: كان أهل الجاهلية اذا أرادوا سفراً أخرجوا الطيور من أوكارها فان أخذت يميناً او الى الامام استحسنوا ذلك الفال وسافروا وان اخذت شمالا أو رجعت الى الخلف تطيروا ورجعوا عن السفر فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم نهي عن ذلك وقال «امكنوا الطيور في أوكارها وبكروا على اسم الله تعالى» فقال اسحق لابن حنبل :والله لو لم نأت من العراق الى الحجاز الا لطلب تفسير هذا الحديث لكفى ، فقال احمد : وفوق كل ذي علم عليم . ومن ذلك الوقت انطبع حب الشافعي في قلب احمد بن حنبل واسحاق بن راهويه

استمر الشافعي في تحصيل العلم وتدريسه ببيت الله الحرام تحضر عليه العلماء والشعراء والادباء كالاصمعي وغيره الى أن تجاوز العشرين من عمره بقليل حيث ظهر للناس وقتها كتاب الموطأ للامام مالك واشتهر بينهم فاشتاقت نفس الشافعي الى رؤية الامام مالك رضى الله عنه وهو بالمدينة المنورة والاستفادة من علمه فاستعار كتاب الموطأ من رجل من أهل مكة وحفظه في زمن يسير كعادته ، ثم تقدم الى والى مكة ورجاه في أن يكتب له جواب توصية لوالي المدينة كي يقدمه للامام مالك ولفرط حب الوالى للشافعي كتب له جوابين احدهما لوالي المدينة والثانى للامام مالك وسلمهما للشافعي

فأخذ الشافعي الجوابين وعاد الى البيت مسرعاً مسروراً ومن شدة فرحه قرع الباب قرعة عنيفة فقالت أمه من الطارق فقال انا الشافعي

فقـالت ارجع وتعلم الادب ثم عد وهذا التنبيه من أمه أثر في نفسه وأدرك أنه لم يتم تأديبه بعد ، فعزم على ان لا يرجع اليها الا وقد كمل أدباً وعلماً ثم عاد لوقته ولحق بركب المدينة وتعرف بشيخه وكان من المتغالين في حب الامام مالك، فلما رأى شيخ الركب شوق الشافعي الى مالك فرح به وقدم له أحسن بعير في قافلته وكان اسمه الابرق وأخذه في صحبته وكانت أحسن صحبة . ثم أخذ الركب في السير وأخذ هو في الدرس حتى ختم من مـكة الى المدينة ست عشرة ختمة ، بالليل ختمة وبالنهار ختمة ، ودخل المدينه في اليوم الثامن بعد صـلاة العصر فصلى في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ثم دنا من القبر وسلم على صاحبه عليه الصلاة واتم التسليم وبعد ذلك ذهب إلى والي المدينة ودفع اليه الجوابين ففتح الوالي الجواب الخاص به وقرأه ثم نظر إلي الشافعي وقال له والله يابنيّ لو أن والي مكة طلب الي السعي من جوف المـدينة إلى جوف مـكة ماشياً حافياً لـكان أهون عليّ من الذهاب الي بيت الامام مالك . فقال الشافعي يمكنك ان تحضره هنا . فقال الوالي هيهات ليتنا إذا ركبنـا اليه ووقفنا على بابه يفتح لنا الباب ولـكن هيا بنا على بركة الله

ركب الوالي وأخذ الشافعي معه الى ان وصلا الى دار مالك فتقدم رجل وقرع الباب فخرجت جارية سوداء فقال لها الوالى قولى لمولاك انني بالباب فدخلت الجارية وأبطأت ثم خرجت تقول ان مولاي يقول لك إن كانت لك مسألة فارفعها في رقعة حتى يخرج لك بالجواب عليها

وان كان المجيء لشيء آخر فقد عرفت يوم المجلس فانصرف اليه ، فقال لها الوالي قولي لمولاك ان معي كتاباً له من والي مكة في مهمة خاصة به فدخلت الجارية ثم خرجت وفي يدها كرسي . وبعد ذلك خرج مالك فاذا هو شيخ طويل القامة أشقر اللون عليه المهابة والوقار ومتطيلس فدفع الوالي الكتاب اليه فلما بلغ الى قوله ان محمداً بن ادريس رجل شريف من امره ومن حاله كذا وكذا رمى مالك الكتاب من يده وقال يا سبحان الله صار علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بحيث يطلب بالوسائل (اي بالوسائط والتوصيات » . فتقدم الشافعي اليه وقال اصلحك الله تعالى اني رجل مطلبي ومن حالي وقصتي ما هو كذا وكذا فلما سمع كلامه عطف عليه ونظر اليه ساعة وكان لمالك فراسة فسأله ما اسمك ، قال : محمد ، قال له : يا محمد اتق الله واجتنب المعاصي إني أرى في قلبك نوراً فلا تطفئه بالمعصية فانه سيكون لك شأن في الناس فقال الشافعي نعم وكرامة ، قال مالك : إذا كان الغد فتجيء لنقرأ لك الموطأ فقال الشافعي : إني أقرؤه يا مولاي حفظاً قال مالك اقرأ : فأخذ الشافعي يقرأ ومالك يسمع له وكلما خاف الشافعي على مالك من الملالة سكت فيقول له : زد يافتى فاني أستحسن قراءتك وهكذا استمر الشافعي على الحضور الى بيت الامام مالك في كل يوم يقرأ عليه الموطأ ومالك يسمعه له حتى قرأ عليه الموطأ كله في أيام يسيرة ، وبعد ذلك رأى الشافعي أن يحضر مجلس الامام مالك في مسجد النبي صلى

الله عليه وسلم للسماع منه فرآه داخلاً من باب النبي [١] مؤتزرا ببردة متشحاً بأخرى متطيباً مغتسلا مسرحاً لحيته وكانت هذه عادته عند قراءة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام له من في المجلس جميعاً وقد هابه الشافعي مهابة عظيمة وجلس حيث انتهى به المجلس بعد ما جلس مالك والحاضرون

والأصل في الوشاح عند العرب هو لستر العورة وذلك لأن القميص عندهم كان مفتوحاً من الامام على شكل الظعبوط (عندنا في مصر) ولم تكن له أزرار فكان الرجل يتوشح بالثوب حتى لا ترى عورته من فتحة القميص اذا ما انحنى الى الأمام كما ذكره الشافعي في كتاب الام والوشاح عادة قديمة عند رجال القضاء من قديم الزمان

ثم بدأ الامام مالك في قراءة الحديث فقال : حدثنا نافع عن ابن عمر عن صاحب هذا القبر . واشار بيده إلى قبر الرسول عليه الصلاة والسلام وقرأ خمسة وعشرين حديثاً وكان كلما قرأ حديثاً كتبه الشافعي على ذراعه بريقه بواسطة عود اخذه من الارض والامام ينظر اليه خلسة حتى إذا ما انقضى المجلس أشار اليه مالك فدنا الشافعي منه فقال له ياغلام أرى فيك إساءة أدب حيث رأيتك وأنا أملى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم تلعب بريقك على يدك ، فقال الشافعي: لم أكن لألعب بريقي يامولاي وإنما كنت أكتب ما تملي وذلك لعدم وجود قراطيس عندي فأخذ مالك يده فلم ير عليها شيئاً فسأله فقال الشافعي

---

(١) واقع بالجهة الشرقية للمسجد

إن الريق لا يثبت ولكني فهمت وحفظت كل ما حدثت به فتعجب الامام مالك من ذلك وقال له أعد علي ولو حديثاً واحداً فقال الشافعي حدثنا أستاذنا الجليل مالك عن نافع عن ابن عمر عن صاحب هذا القبر واشار الى قبر النبي صلى الله عليه وسلم كأشارة الامام مالك تماماً وصار يعيد من الاحاديث التي سمعها حتى أعاد عليه الخمسة وعشرين حديثاً كلها وكانت الشمس قد غربت وحانت صلاة المغرب فصلى مالك المغرب وأمر مولاه أن يأخذ بيد الشافعي إلى منزله وسأله النهوض معه فامتثل . وأقام الشافعي عند الامام مالك ثمانية أشهر يلازمه في البيت وفي المسجد ويقدم له مالك الطعام والماء بيده ويأخذه في صحبته إلى المسجد : وبعد ما يقرأ مالك على الناس الموطأ يعطيه للشافعي ليمليه عليهم وهم يكتبونه فازداد بذلك الشافعي حفظاً للموطأ وفهماً له وعرفته الناس

وكان من عادة المصريين بعد قضاء حجهم ان يتوجهوا إلى المدينة المنورة للصلاة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم واستماع الموطأ من الامام مالك وكان الشافعي يمليه عليهم ومن ذلك الحين عرف المصريون الشافعي ومالت قلوبهم اليه واهتموا بالوقوف على اخباره . وكان فيمن املى عليهم الموطأ في المدينة من المصريين عامئذ عبد الله بن عبد الحكم و اشهب وابن القاسم والليث بن سعد حتى ان الشافعي لما قدم مصر كان عبد الله بن عبد الحكم اعظم نصير له كما سيجيء إن شاء الله

وكما كان المصريون يتوجهون إلى المدينة بعد أداء فريضة الحج للصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ولسماع الموطأ على الامام مالك كان اهل العراق يفعلون ذلك حتى انه لما قدم ركب الحاج العراقي الى المدينة في تلك السنة للصلاة واملى الشافعى عليهم الموطأ كغيرهم سمع الشافعي من بعضهم اخبار علماء العراق كأبي يوسف ومحمد بن الحسن صاحبي الامام ابي حنيفة رضي الله تعالى عنه والامام وكيع بن الجراح وغيرهم فرغب الشافعى بالسفر معهم إلى العراق للاجتماع باولئك العلماء وامثالهم فدخل على الامام مالك وقال له خرجت من مكة في طلب العلم ولم استأذن والدتي فهل اعود اليها او ارحل في طلب العلم فقال له مالك : يابني العلم فائدة يرجع منها إلى فائده الم تعلم ان الملائكة تضع اجنحتها لطالب العلم رضاء بما يطلبه ، فقال الشافعى : اريد السفر إلى العراق ، فزوده مالك بستة واربعين ديناراً واكترى له راحلة الى الكوفة باربعة دنانير وخرج يودعه الى البقيع . وهناك سأله الشافعى : من اين لك يامولاي هذا المال؟ فقال مالك ان ابن القاسم المصري اعطانى مئة دينار اقتسمتها بيني وبينك

وبعد اربعة وعشرين يوماً من قيامهم من المدينة وصل ركب الحاج العراقي الى الكوفة فقصد الشافعي مسجد على بن ابى طالب كرم الله وجهه في ظاهر الكوفة وصلى العصر فيه

وبينما هو فى المسجد اذ رأى غلاماً يصلي فلم تعجبه صلاته فنصحه

فلم يقبل الغلام وقال : انا اصلى هـكذا خمس عشرة سنة بين يدي ابى يوسف ومحمد بن الحسن صاحبي ابى حنيفة فما عاباعلى شيئاًوانت تعيبها ونهض غضبان . وصادف انه وجد لدي باب المسجد الامام ابا يوسف ومحمد بن الحسن فسألهما الغلام عما إذا كان فى صلاته عيب فقالا اللهم لا فقال الغلام إن فى المسجد رجلا عابها فقال له محمد بن الحسن اذهب اليه وقل له بم تدخل الصلاة فذهب الغلام الى الشافعى وسأله هذا السؤال فاجابه الشافعى « إنى أدخل الصلاة بفرضين وسنة » فعاد الغلام الى الشيخين وقال لهما يقول انه يدخل الصلاة بفرضين وسنة فقال له محمد ابن الحسن ارجع اليه واسأله عن الفرضين والسنة فقال له الشافعى « أما الفرضان فهما النية وتكبيرة الاحرام وأما السنة فهي رفع اليدين » فعاد الغلام الي الشيخين واخبرهما بالجواب فعرفا ان هذا قول من نظر فى العلوم فدخلا المسجد فقام لهما الشافعى اجلالا وتعظيما واظهر البشاشة لهما وجلس بين يديهما فسأله محمد بن الحسن عن نسبه وبلده فاخبره عنهما ثم سأله عما إذا كان رأى الامام مالك

فقال من عنده اتيت فقال هل نظرت في الموطأ قال حفظته عن ظهر قلب فعظم ذلك عند محمد بن الحسن ودعا بدواة وقرطاس وكتب له أسئلة في الطهارة والزكاة والبيوع والرهان وترك له بين كل سؤال وآخر مسافة بيضاء ليكتب فيها الاجوبة واعطى القرطاس للشافعى وقال له أجب عن هذه الاسئلة كلها من الموطأ فاخذ الشافعى الورقة وتأمل

فيها ثم كتب جواب كل سؤال في المسافة المتروكة له ورد القرطاس الى محمد بن الحسن فتأمله ونظر فيه ثم التفت الى عبده وقال له خذ سيدك الى الدار فذهب الشافعي الى دار محمد بن الحسن ورأى ابوابها وسقف دهاليزها منقوشة بالذهب فتذكر ضيق عيش اهل الحجاز وماهم عليه من الفقر فبكي وقال مساكين اهل الحجاز هم يأكلون القديد ويمصون النوي واهل العراق ينقشون سقوفهم بالذهب. وصادف ان وصل الامام محمد بن الحسن إلى الدار فراى الشافعي وهو يبكي فادرك معنى بكائه فقال له لا يرعك يا عبد الله ما رايت فما هو الا من مال حلال أخرج زكاته في كل عام. ثم أخذه بيده وقدم له خلعة تساوي الف درهم ودخل به مكتبته واخرج له منها الكتاب الاوسط الذي جمعه من اقوال الامام ابي حنيفة وناوله له ليطلع على مافيه فأخذه الشافعي وسهر عليه طول ليلته حتى حفظه كعادته ولما اصبح الصباح حضر الشافعي مجلس محمد بن الحسن وقد رفعت اليه مسألة فقال الامام محمد الجواب عليها كذا كما قال ابو حنيفة فنظر الشافعي اليه مشيراً بأن الجواب ليس كذلك ولما خلا به الامام محمد بن الحسن قال له من أين علمت هذا فقال الشافعي من الكتاب الذي اعرتنيه بالامس وهذه المسألة في صحيفة كذا من جزء كذا وتحتها المسألة الفلانية وفوقها المسألة الفلانية فأمر محمد بن الحسن بالكتاب فاحضر اليه فتصفحه فوجد القول كما قال الشافعي فرجع عن جوابه الاول وازداد اعجابه

بالشافعي جداً واذن له أن ينسخ من مكتبته ماشاء من كتبه

أقام الشافعي مدة في الكوفة ضيفاً على محمد بن الحسن نسخ في خلالها كثيراً من الكتب التي كانت في مكتبته ولما أتم غرضه اراد السياحة في بلاد فارس وما حولها من بلاد الاعاجم والطواف بالعراق فعرض ذلك على محمد بن الحسن فوافق عليه واعطاه ثلاثة آلاف درهم ليستعين بها في سياحته

اخذ الشافعي المال وساح في بلاد فارس وما حولها من العواصم ثم سافر الى ديار ربيعة ومضر ، ومنها رحل الى شمال العراق حتى وصل الى جنوب بلاد الروم وهي الاناضول الآن وعرج على حران واقام فيها زمناً ثم سافر منها الى فلسطين واقام في الرملة في جنوب بيت المقدس

وقد استغرقت هذه السياحة حولين كاملين من سنة ١٧٢ — ١٧٤ هـ ازداد الشافعي فيها علماً بما لاقاه من العلماء وعلمه من امور العباد واخلاقهم وعاداتهم ولغاتهم وتعرف بكثير ممن املى عليهم الموطأ وهو في المدينة فكانوا خير معين له في هذه السياحة

وبينماهو في الرملة وإذا بركب المدينة قد جاء من الحجاز فسألهم الشافعي عن مالك فقالوا انه بخير وإنه اتسعت أرزاقه فاشتاق الشافعي السفر الى المدينة لرؤية الامام مالك فاشترى راحلة وسافر عليها الى المدينة المنورة فوصلها بعد سبعة وعشرين يوماً ودخلها ساعة العصر

حوالى سنة ١٧٤ هـ وقصد مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فسلم على صاحبه عليه الصلاة والسلام وصلى العصر والتفت فرأى كرسياً من الحديد عليه مخدة من قباطى مصر مكتوباً عليها بالوشى لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] ورأى حول الكرسي نحو أربعماية دفتر أو يزيدون وبينما هو كذلك إذ رأى مالكا رضي الله عنه داخلا من باب النبي صلى الله عليه وسلم وقد فاح عطره في المسجد وحوله جماعة يحملون ذيوله حتى جاء الى الكرسي وجلس عليه ثم طرح مسألة على الموجودين في جراح العمد فلم يجب عليها أحد فضاق صدر الشافعي ونظر إلى رجل في الحلقة كان بجانبه وهمس اليه في أذنه بالجواب فقال الرجل الجواب كذا وكذا كما سمعه من الشافعي ولما تكررت اجابة هذا الرجل بالصواب في كل مسألة يطرحها الامام قال له مالك من أين لك هذا العلم فقال الرجل إن بجانبي شاباً يقول لي الجواب كذا وكذا فاستدعى الامام مالك ذلك الشاب فاذا هو الشافعي فضمه مالك الى صدره ونزل عن كرسيه وقال له أنتم أنت هذا الباب ياشافعي

وبعد ما أتم الشافعي الدرس أخذه الامام مالك إلى بيته فاذا على باب الدار جواد مطهم من خيل مصر فقال الشافعي : ما أحسن هذا الجواد ، فقال مالك : هو هدية مني إليك ، فقال الشافعي : يامولاي

---

(١) وهو في الجهة الشرقية من المسجد

دعه لنفسك لتركبه ، فأجابه مالك اني أستحي من الله أن أطأ تربة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة ثم أخذ الشافعي من يده وأدخله البيت

ولم يمض على الشافعي زمن طويل بعد عودته إلى المدينة حتى جاءت الإخبار من مصر بوفاة الامام الليث بن سعد في نصف شعبان سنة ١٧٥ هـ وأنهم دفنوه في القرافة الصغرى فحزن لوفاته مالك والشافعي

وأقام الشافعي بعد ذلك في المدينة المنورة أربع سنوات وأشهراً ملحوظاً بعين الامام مالك إلى أن توفي الامام مالك في شهر ربيع سنة ١٩٧ هـ ودفن بالبقيع في ظاهر المدينة ووجدت عليه أهل المدينة كبيرهم وصغيرهم وجداً عظيما

مات مالك وبقي الشافعي ولا معين له في المدينة إلا الله تعالى وكان عمره عامئذ ٢٩ سنة تقريبا

وصادف أن جاء والي اليمن إلى المدينة فكلمه جماعة من قريش في الامام الشافعي فأخذه الوالي كاتبا له . ولما عاد إلى صنعاء قلده عملا مستقلا أحسن الشافعي إدارته وأثنى عليه الناس وأحبه الوالي

وكان الشافعي في هذه الاثناء تزوج بالسيدة حميدة بنت نافع حفيدة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه ورزق منها ابنه أبا عثمان محمداً وابنتيه فاطمة وزينب وقد ارتقى أبو عثمان محمد في المناصب حتى كان قاضياً لمدينة حلب

وكان الشافعي رضي الله عنه رقيق المعاشرة مع زوجته حتى بلغت به الدرجة من الرقة أن كنى ابنه منها باسم جدها سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه فكناه بأبي عثمان محمد ولم يكنه بأبي ادريس أو الشافعي

وكان مثلا أعلى للحياة الزوجية الطاهرة الصريحة حيث كان يوصي زوجته أن لا تعارضه في القول عند ثورة غضبه مخافة أن يمحو أثر هذه المعارضة ما في قلبه من المحبة لها فيقول :

خذى العفو منى تستديمى مودتي ولا تنطقي في ثورتي حين أغضب
فاني وجدت الحب في القلب والاذى إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

وأقام الشافعي في اليمن على عمله يحكم بين الناس بالعدل ملازماً الامام يحيى بن حسان صاحب الامام الليث بن سعد غير منقطع عن طلب العلم وتدريسه لحظة ولم يدع الفرص تفوته مدة وجوده في هذه البلاد بل تعلم فيها علم الفراسة وهو علم خاص ببلاد اليمن في وقتها وقد تفوق فيه

ومما حكاه الشافعي عن فراسته أنه بينما كان مسافراً في إحدى رحلاته إلى مكة دخل عليه الليل فمر برجل واقف في فناء داره أزرق العينين ناتيء الجبهة . فقال الشافعي : لو صحت فراستى كان هذا الرجل خبيثاً. ثم دنا منه وسأله : هل من منزل ؟ قال نعم . فقال الشافعي في نفسه وهذا أخبث مايكون . ثم تقدم الرجل إليه وأنزله من فوق الدابة وأكرمه وبعث له بعشاء طيب وعلف لدابته ولحاف جديد